الشعر والحلم

بقلم عبد الله عبد الدائم

الرغائب ، أو ما يدعى في المصطلح العلمي بالدوافع ، هي المحركات لحياة الكائن الانساني ، منها يسقي صبواته ، وعنها تنطلق أشعة إبداعه . وهي ، سواء كانت دوافع دنيا أو عليا ، عميقة الجذور في بنيان الانسان ، تهزه وتثيره ، مدركاً لها حيناً وغير مدرك لها أحياناً .

فهذا إنسان تثيره رغبة في السيطرة والتفوق وتوكيد الذات ؛ وهذا آخر تهزه دوافع الحب والجنس ؛ وهذا ثالث يندفع إلى إرواء منازع الطمأنينة والأمن من المخاوف ؛ وهذا رابع تدغدغه دوافع الخضوع والخنوع فيبحث جاهداً عن سيد يخضع له او فكرة يعبدها ويقف في محرابها ذليلا صاغراً ... وهؤلاء جميعهم يصدرون في هذا كله عن دوافع نجدها لدى كل إنسان ، تبحث عن الري دوماً وتنزع إلى التحقيق .

غير أن هذه الدوافع والرغائب لا تبلغ هذا الري دوماً ، وكثيراً ما تظل عطشى ، إذ تحول العوائق الخارجية دون إروائها . فالانسان لا يعيش وسط عالم يحقق له ما يرغب ، وإنما يعيش وسط عالم معاند مقاوم يأبى عليه أن يصل إلى إرضاء دوافعه إلا غلاباً واغتصاباً . فدافع السيطرة مثلاً تقف دونه رغبة الآخرين أيضاً في السيطرة . والدافع الجنسي تحول دون إروائه ، في أكثر الأحيان ، تقاليد المجتمع وأعرافه . ودافع الشبع والري يقف من دونه العوز . والرغبة في الطمأنينة والأمن تهددها المخاوف والاخطار الكثيرة ...

ومع ذلك فهذه الدوافع من الأصالة بحيث لا تلقي السلاح ، رغم هذه العوائق جميعها . وهي لا ترضى من الغنيمة بالاياب في حال من الأحوال ، بل تظل قائمة ، تعمل في الخفاء وتتلبس بجلابيب وأقنعة ، فتدخل في غير هيئتها ، وتتحقق خلسةً ، وتحتال على صاحبها فتلج البيوت من غير أبوابها .

وأبرز المنافذ التي تنفذ منها ، حين لا يتحقق لها الري في عالم الواقع ، هي **الأحلام والفنون والأمراض النفسية** .

فكلنا يعلم ما كشفت عنه أبحاث مدرسة التحليل النفسي خاصةً ، حين بينت أن الاحلام في أعماقها تحقيق مقنّع لرغبات مكبوتة ، وأننا نروي في المنام ما حيل بيننا وبين إروائه في اليقظة .. وكلنا يعلم كيف أن تأويل الأحلام ، في نظر المدارس الحديثة اليوم ، يبغي قبل كل شيء الكشف وراء المحتوى الظاهر للحلم عن معناه الباطن ، أي عن الرغائب التي تحدث صوره ورؤاه . وهكذا يحقق المرء في عالم الحلم منازع وصبوات ما كان له أن يحققها في عالم اليقظة ، فيغدو أميراً مسيطراً أو سيداً قاهراً أو عاشقاً ظافراً ؛ بل يطعم ما حرم منه في اليقظة ، ويكمل تلك النزهة التي انقطع عنها نهاره ، ويعل وينهل إن كان عطشاً ... بل كثيراً ما ينجح في الانتقام من أخصامه وفي الثأر من لداته واعدائه ، فيراهم في الحال السيئة التي يرجوها لهم ، ويزيحهم من عالم الحياة إن كان في موتهم خلاص له .

وهكذا تمتزج طيوف الأحلام مع طيوف الرغائب ، وتتحد أبخرة الحلم مع أبخرة الدوافع ، ويُخلق من هذا كله عالم من الرؤى والأخيلة .

وشبيه بأحلام المنام هذه أحلام اليقظة . فالانسان لا يحلم في منامه فقط ، وانما يحلم وهو مستيقظ . اذ يخلو الى نفسه في بعض اللحظات ، ويستسلم الى ركبان الصور التي تغزوه وتزوره . فيبني الآمال الجسام ، ويحقق منها في خياله ما يريد ، وينشيء قصوراً في إسبانيا كما يقولون ، وتداعبه الاعيب الاخيلة ، فيتخيل نفسه عظيم الشأن رفيع القدر ، أو يخال نفسه في جانب الفتاة التي يرجو ، أو يجد محفظة نقوده المتئابة وقد امتلأت سمنة وثراء ، او يقيم المشروعات والخطط ، مستمتعاً بعالمه المسحور هذا ، أو يمتطي سيارته الموعودة ويطير بها في خياله من مكان الى مكان .. وكثيراً ما يغرق هذا العالم الخيالي في سيطرته على بعض الاشخاص فيعيشون حياتهم كلها تقريباً وهم في حلم ، ويبتعدون عن عالم الواقع ويودعونه آوين الى مشروعاتهم الخيالية وأعمالهم الجسام التي لا تعيش الا في أوهامهم ولا ترى نور الواقع . ويدعى مثل هؤلاء الاشخاص باسم « الحالمين الأيقاظ » : فهم يتخيلون الامور كما يريدون ، ويحلمون بأنهم على غرار ما يشاؤون من عظمة وكبرياء وثراء ، وتغزوهم طيوف العبقرية الواهمة ، فيدعونها وهم لا يعرفون منها الا اشباحها . وأبرز مثال على هؤلاء الحالمين الايقاظ « دون كيشوت » في رواية الكاتب الاسباني « سرفانتس » . انه يعيش في عالم من صنع أحلامه ، يحسبه واقعياً . فهو يحارب طواحين الهواء مثلاً ويسجل ظفراً عليها ويعدّها حصوناً فتحها

٢٦

وهو يبقر بطون الخراف بسيفه ويحسبها أعداء له يظفر عليها ، وهو ينصّب نفسه، في وهمه وخياله، حامياً للايامى والأرامل... وكلنا يعرف قصة صاحب جرة العسل وكيف استوحى من هذه الجرة المعلقة في السقف فوق رأسه صوراً عذاباً وآمالاً طوالاً ، ما لبثت حتى حطمتها عصاه حين حطمت الجرة... وكلنا يذكر أيضاً قصة « بائعة الحليب » التي يحدثنا عنها « لافونتين » في أقاصيصه .

وشبيه بأحلام اليقظة هذه الاقاصيص الشعبية والخرافات والاساطير . فهذه أيضاً مركبات من صنع الخيال ، يحاول الانسان عن طريقها إطفاء غلته وإرواء حرقته.. وهي في أعماقها محاولات تقوم بها الشعوب لارواء رغائبها. ولهذا نجد ان هذه الاقاصيص والاساطير التي يختلقها خيال الشعب والجمهور تشتمل على موضوع واحد تقريباً لدى أكثر الشعوب ، وهي في حقيقتها اشكال مختلفة للحن واحد . إذ فيها افكار متشابهة: منها وأشهرها فكرة الغني الذي ما يلبث حتى يصبح فقيراً ، والفقير الذي يغتني . ومنها فكرة السيد الذي تدور عليه الأيام فيصبح مسوداً ، أو الملك الذي يُلقى بعد نعيمه بؤساً ، أو الشعب المغلوب الذي يصبح غالباً . وهكذا تعبر هذه الاقاصيص الشعبية الخيالية عن محاولة لارواء رغبات الشعوب وتطمين الطبقة التعيسة فيها بوجه خاص .. فهي تحقق دوماً عكس ما يشتمل عليه الواقع .. وهي تمني البائسين بالثراء، او تعزيهم بما تقصه عليهم من المآل السيء الذي ينتهي اليه اصحاب النعمة والجاه . وهي ترسم لساكني الجحيم الأرضي فردوساً ينعمون فيه . وهي تغذي الضعف الانساني وتعزيه بما تقصه من أحاديث الابطال والبطولات .. وهي تقدم للمحبين العزاء والسلوى والتصفية والتنقية حين تحدثهم عن أساطير مجانين العشاق .. والتحليل البسيط للاقاصيص الشعبية ، من مثل اقاصيص ألف ليلة وليلة والزير وعنترة والملك الظاهر وأقاصيص الجنيات واحاديث الجدات وخواتم المردة والعصي السحرية وغيرها ، يكشف لنا عن الرموز العميقة الثاوية وراءها وعن امتلائها بأرواح الرغائب العذاب ..

غير ان هذه الاساطير والخرافات أشكال دنيا من التعبير عن الرغائب وارواءها . اما الفن فهو التعبير العميق عن هذه الرغائب جميعها . إنه تصعيد لها وسمو بها . وهو يصوغ منازعها صياغة منمقة رفيعة . وأكبر شاهد على الصلة بين الفن والرغاب ان ما يستباح للفنان لا يستباح لغيره . وهكذا نجد الفنان يعرض علينا الصور العارية والاجساد الحارة والشهوات المجسدة دون ان يثير ذلك لدينا النفرة والثورة المعتادة. وبهذا نستبيح لانفسنا ان نشفى عن طريق مبدعات الفن ما نأبى ارواءه في الواقع ... ومن أبرز هذه الرغائب التي يرويها الفن رغبة الرؤية الجنسية ورغبة العرض الجنسي : أي ان نرى الجنس ونعرضه. أوليس الفن في اعماقه كشفاً للستر وازاحة للاقنعة ؟ ومنها ايضاً الرغبة المازوشية : أي الرغبة في تعذيب الذات ، وما نجده لدى المحبين خاصة من تعشق القسوة على أنفسهم ومايشعرون به من متعة حين يرهقون أنفسهم بل أجسادهم . ومنها الرغبة الساذية : أي الرغبة في تعذيب الاخرين ، لا الذات، والبحث عن المتعة واللذة في تعذيب المحبوب والاستمتاع بلوعته ... ويطول بنا الحديث إن نحن أردنا استعراض هذه الرغائب التي ترويها الفنون وتشفيها. ويطول بنا الكلام أكثر ان نحن شملنا بالحديث أنواع الفنون جميعها. ولهذا نقصر حديثنا على الشعر وما يخفي وراءه من رغاب عذاب ، وما يحققه من صبوات يأبى عالم الواقع تحقيقها .

إن الأشعار ، كالأحلام ، إرواء لرغبات منعت من الري. وهي استباحة رفيعة لمحرمات يضيّق عليها المجتمع خناقه . وبهذا تعمل الأشعار على تطهير نفس الانسان من هذه المحرمات وحين تبيحها له صافية رائعة ، وحين تضعها في عالم خيالي لا واقعي ...

لننظر مثلاً الى دوافع الحب ومنازعه ، ما دامت تكوّن النغم الأساسي في الشعر . إن مما يجلب الانتباه أن الحديث عن الحب في الشعر يشمل غالباً الحديث عن الحب الفاشل المعذب، وعن الهجر دون الوصال ، وعن أشواك الحب لا وروده . وقد يظن المرء للوهلة الاولى أن في هذه الظاهرة ما يناقض القول بأن الشعر إرواء لرغبات لا تتحقق في الواقع .. غير ان الأمر على خلاف هذا الظن . فالشعر يقوم بدور التفريق والتنفيس عن أصحاب الحب الفاشل حين يحدثهم عنه . وبهذا يحقق رغبة أوكد وأقوى من رغبة الوصال ، هي الرغبة في اعتبار الحب مرادفاً للألم والأسى ومقروناً بالصعاب . والآلام التي يشير اليها الشعراء حين يتحدثون عن ذل الحبيب وهجرانه آلام في ظاهرها رغائب في باطنها . إنها تعبر عن تلك النزعة التي أشرنا اليها ، نزعة المازوشية : فالمحب يجد متعة كبرى في تعذيب المحبوب له ؛ وهو إذ يعلن خضوعه لارادته واستسلامه لسلطان هواه ، يعبر عن نزعة عميقة من نزعات الانسان ،

٢٧

نعني نزعة الخضوع . فكما يحب الانسان السيطرة والتفوق ، يحب الخضوع والذلة ، على ان يكون هذا الخضوع خضوعاً لأمور يكبرها . ولولا هذا الدافع للخضوع لما خلقت العبادة على اختلاف أنواعها ، عبادة الاشخاص وعبادة المبادىء..

- لولاهواكِ لما ذللت وإنما عزي يعيّرني بذل فؤادي
- لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقدسرني أني خطرت ببالكِ
- يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويزيد في قوة هذا الخضوع في الشعر أنه مصحوب غالباً ببطولة صاحبه في الميادين الأخرى .. فالشاعر الذي يحدثنا عن خضوعه لسلطان الهوى يحدثنا في الوقت نفسه عن بطولاته وعزته في سائر الحلبات . وهكذا يعبر أدق تعبير عن امتزاج دوافع السيطرة ودوافع الخضوع لدى الانسان .. إن عنترة فتى الفتيان ، ولكنه أمام «عبلة» مستسلم ضعيف. ومثل عنترة جميع الفرسان ، ولا سيما في عهود الفروسية ..

مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاكِ إلا أن سلطان الهوى وبه حكمن أعز من سلطاني

إن الجنة في خيال الانسان محفوفة دوماً بالمكاره ؛ وأكبر رغبة عنده أن ينتزع الرغائب انتزاعاً وأن يصل اليها بعد لأي وجهد ومشقة .. بل إن أكبر رغبة عنده ألا يصل إليها البتة في بعض الاحيان .. ولا أدل على عمق الصلة بين الحب والالم من أحاديث العشاق العذريين : إن فرداً من بني عذرة هؤلاء قد مات برداً وهو واقف أمام دار الحبيب متعبداً خاشعاً . أولم يوحد الفلاسفة بين الحب والموت؟أفلا تعبر قصة «تريستان وإيزولده» الخالدة عن هذا المعنى العميق، معنى الوحدة بين الحب وعذابه ، بين الحب والموت ؟أفلا يصم العذريون العاشق الراغب في إرواء متعته ارواء حقيقياً بأنه « طالب ولد » لا عاشق؟وهكذا يروي الشعر رغبة هي أعمق من الارواء، يروي رغبة العذاب في الحب والجهاد في العشق ..

ثم إن الشعر إرواء للرغائب بمعنى آخر غير هذا : فهو يقدم للانسان صور الكمال ، فيحقق توقه للمثل الاعلى ورغبته في الوصول الى النماذج التامة في كل شيء . إنه عودة إلى العالم الافلاطوني نجد فيه صور الحياة الدنيا وقد اغتنت واكتملت وأصبحت لامعة براقة . إنه يتحدث عن الجمال الامثل المطلق، وعن ارقى صوره ! ويتحدث عن الخير الامثل ، ويصف مخلوقات يضع فيها ما يرجى من كمال .. وعلى هذا الاساس يمكن أن نفسر الغلوّ في الشعر . إن هذا الغلو قبل كل شيء تعبير عن رغبة الانسان في أن يصعد من النقص الارضي الى كمال ما بعده كمال. ويستوي في هذا الغلوُّ في النسيب أو المديح أو الهجاء أو الفخر أو الوصف أو غيرها من فنون الشعر ... ففيها جميعها يحاول الانسان أن يكمل صور الواقع ويذهب بها الى نهايتها .. ومثل هذا الحنين إلى إكمال ثغرات الواقع ، وإلى تخيل عوالم مثلى تناقض ما في الواقع، حنين أزلي لدى الانسان ، ورغبة من رغائبه الاثيرة عنده . كمثل الظمآن في الصحراء يتخيل الانهار العذاب والجنات الخضراء .. ولهذا نجد الاشخاص الذين يصفهم الشعراء اشخاصاً نموذجيين غالباً ، يجسد فيهم الشعراء كل ما يرجونه من صفات الكمال . بل هم في كثير من الاحيان أشخاص شفّهم الكمال فأضواهم وجعل منهم أشباحاً لا كائنات حقيقية من لحم ودم :

كأني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي

ومن أجل هذا كانت تهزنا أشعار الحماسة والفخر خاصة . فهي تجرد الكائن الانساني مما به من ضعف ، وتنضو عنه اهاب النقص وثقل المادة ، لتنقله الى عالم الاثير، الى عالم خفيف يحلق فيه ويطوف في أجواء الروح اللطيفة الطيارة :

- وانا لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
- اذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

ففي هذا كله مجاوزة للقوانين التي يخضع لها الانسان ، وللعوائق التي تحد من سيطرته وقوته وكماله .. انه يغدو، في مثل هذا الجو الشعري ، حراً طليقاً من اسار المادة والجسد والعلائق العادية المألوفة ، ويخلق عالماً من صنعه يتصرف فيه كما يشاء ، ويؤثر فيه، تأثير العصا السحرية أو الخاتم المارد. وهكذا تنعقد الصلة قوية جداً بين عالم الحلم وعالم الاساطير من جهة وبين عالم الشعر من جهة ثانية . ففي كليهما خروج على قوانين الكون القاسية الصارمة، وتحليق في كون مسحور نصنع فيه ما نشاء. ان عالم الشعر ، كعالم الحلم ، عالم من عدم الجبرية وعدم التقيد عالم يميزه عدم الاهتمام والاكتراث بقوانين الحياة العادية. وهذا هو المعنى العميق لتحليق الشعراء .. ومن اطلع على ما يدعوه الشاعر الالماني « نوفالس Novalis » باسم « الشعر السحري » يستطيع أن يدرك بوضوح ما بعده وضوح ما في جو الشعر من قدرة سحرية على تحويل الاشياء، الى لغة الرغائب والميول. أفلا نجد في الشعر كما نجد في الحلم ، ان الزمان لا شأن له، وأن الحالم كالشاعر يقطع في دقائق قليلة بل ثوانٍ معدودات حوادث وصوراً ووقائع تحتاج الى سنوات طوال في الحياة الواقعية ؟

٢٨

ان عالم الشاعر كعالم الحالم غير متزمن بزمان ، بل هو عالم لا يأبه كثيراً لحدود المكان . ان هذا الشاعر يعرف أن يقفز من الحاضر الى المستقبل البعيد، فيتخيل ما يشاء من ظفر وقوة ومتعة . انه يعرف ان يجاوز حدود الممكن فيبلغ المستحيل، متحدثاً مثلاً عن خمرة تسكر الخمرة نفسها، وعن موت يخيف الموت

تمرست بالآفات حتى تركتها   تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

انه يعرف أن يتخيل جسده الثقيل شبحاً هزيلاً شفه الوجد، على نحو ما فعل بشار بن برد ، وهو المعروف بضخامة جثته (حتى قال له أحدهم : لو أرسل الله الريح التي اهلكت عاداً وثمود لما زحزحتك من أرضك)، حين تحدث عن هزاله ونحوله:

ـ ان في بردي جسماً ناحلاً   لو توكأت عليه لانهدم
ـ في بردتي جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طارا

ولهذا يخطيء بعض النقاد حين يريدون أن يحملوا على الفخر خاصة في الشعر ، وحين يعتقدون ان مثل هذا الفخر شيء من مخلفات الشعر القديم .. فهو في الواقع تعبير عن منزع انساني اصيل ، منزع من لا يريد ان يعترف بحدود الواقع الموضوعي ومن يأبى الا ان يعيش في عالم من صنع رغائبه ورغائب الانسانية البعيدة . والا فما الذي يطربنا في مثل هذا الفخر ويشجينا رغم كل شيء ؟ ألسنا نجد فيه في كثير من الاحيان صبوات تشبه صبوات «نيتشه» في حديثه عن «الانسان الاعلى»؟

ـ ونحن اناس لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر
ـ أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي   وأسمعت كلماتي من به صمم
ـ اذا ما غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

ان في هذا كله لجوء الى عالم الرغبات العميقة، عالم المنازع الانسانية البعيدة . وعن هذه الطريقة يقوم الشعر في كثير من الاحيان بدور التنفيس والترويح عن بعض النكبات الكبرى التي يعانيها الفرد أو يعانيها شعب مغلوب على أمره مظلوم . افلا يقوم الشعر بهذه المهمة حين يحدثنا مثلاً عن فلسطين وحين ينقلنا الى الظفر بعد الخذلان، ويمنينا بالنصر مهما تكن الظروف؟ افلا يقدم لنا هذا الشعر الاحتجاج العميق الوحيد على واقع معاند مغالب يأبى ان يلبي ما نريد وينتزع منا ما لا نقوى على استرجاعه الا في مثل هذه العوالم الشعرية ! وهكذا يتبين لنا ان الشعر ، كالحلم وكالأمراض النفسية، ملجأ نلجأ اليه للخلاص من قسوة العالم الواقعي ونقائصه وبشاعته . فنحن حين يعجزنا الواقع ويحول بيننا وبين غاياتنا العميقة ، نلجأ الى احد حلول ثلاثة : نلجأ الى الحلم فنروي فيه ما نريد ، أو نلجأ الى الفن فنصعّد عن طريقه عصي الرغائب ، أو نلجأ من دون هذا وذاك الى المرض النفسي، اذا لم نجد غير هذا المركب الخشن مركباً، فنحقق عن طريق المرض ما لم نستطع تحقيقه في حال الصحة من رغاب ، ونستمتع بفضل المرض النفسي بامتيازات تقرب منا كثيراً من الرغائب المحرمة علينا ونحن اصحاء: فنظهر البغض لمن نريد ، ونتخيل انفسنا كما نريد، ونحب من نشاء.. ولهذا يعد الباحثون المحدثون المرض النفسي ضرباً من الملجأ نأوي اليه . ولولا ضيق المجال لتحدثنا عن هذا المرض النفسي وكيف يحمل في اعماقه معنى قريباً من المعنى الذي يحمله الحلم والشعر والفن جملة. وهذا هو الذي يفسر لنا ذلك التقريب الشهير بين العبقرية والمرض ، بين الفن والجنون . فهو صحيح من ناحية واحدة، وهي ان كلا الفن والمرض النفسي ملجأ لارواء الرغبات المكبوتة . غير أن الفن ملجأ منظم واع تطل فيه القوى العقلية سليمة مسيطرة ، ويتحدث فيه الفنان الى الآخرين لا الى نفسه . بينما المرض النفسي والحلم ملجآن غير واعيين ، والحديث فيهما قائم بين المرء وذاته ، لا بين المرء والاخرين .

وهذا الشبه العميق بين عالم الشعر وعالم الحلم هو الذي يفسّر لنا أسرار تلك النزعات الشعرية التي تعتمد الحلم أساساً : من مثل النزعة « السريالية » . فهي تود قبل كل شيء الغوص الى اعماق اللاشعور ، وجعل اقوال الشاعر أشبه بمنتجات الحلم ورؤى المنام .. وما محاولات « بروتون Breton » و« آراغون Aragon » و « إيليار Eluard » وغيرهم من السرياليين إلا محاولات تبغي قبل كل شيء توثيق الصلة بين منطلقات اللاشعور في الحلم ومنطلقات اللاشعور في الفن واستقبال منتجات اللاشعور استقبال الحالم لها ..

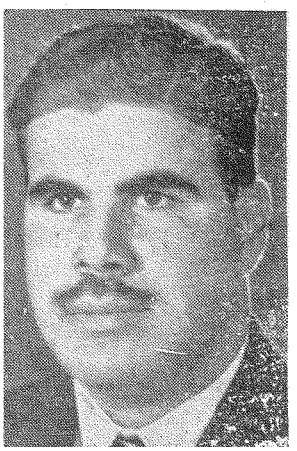

ولولا ضيق المجال لأتينا بالامثلة الكثيرة التي تبين هذه الصلة بين جميع هذه العوالم الصادرة عن دنيا الرغبات المكبوتة: عالم الحلم وعالم الشعر وعالم المرض . وحسبنا أن أشرنا هذه الاشارات الموجزات إلى وجه من أوجه دراسة الشعر نظنه جديراً بالعناية والاهتمام وقد يكون لنا الى مثل هذا الحديث عود .

دمشق — كلية التربية

عبد الله عبد الدائم